مراجعة نقدية لكتاب:

(Implementing Innovative Social Investment: Strategic Lessons from Europe)

د. ايمان بنت يوسف الحجاجي
جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل
emanalhjaji@hotmail.com

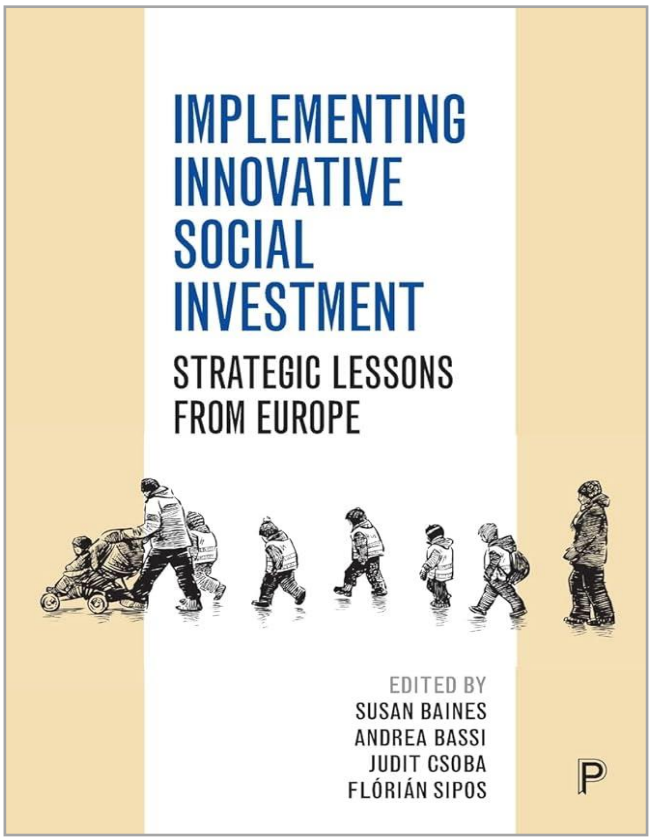

تؤدي العوامل الجغرافية والثقافية الغنية في أوروبا دورًا مهمًا في تشكيل سياسات الاستثمار الاجتماعي. لذلك؛ فإن الكشف عن كيفية تأثير الحلول المبتكرة على مشهد السياسة الاجتماعية يظل مسألة بالغة الأهمية. وفي هذا الصدد، صدر كتاب "تنفيذ الاستثمار الاجتماعي المبتكر: دروس إستراتيجية من أوروبا"، تحرير Baines et al. (2019)، ويقدم هذا الكتاب استكشافًا شاملًا لمبادرات الاستثمار الاجتماعي المبتكرة في عدد من الدول في أوروبا كموضوع رئيس له، ويركز الكتاب على فحص سياسات الاستثمار الاجتماعي وممارساته على وجه الخصوص، كما يركز المؤلفون على تقييم الأساليب المبتكرة لمواجهة التحديات المجتمعية المعقدة.

يغطي الكتاب –المقسم إلى ثلاثة أجزاء– موضوعات إضافية مثل: التدخلات المبكرة في حياة أفراد المجتمع وأسواق العمل النشطة. إضافة إلى ذلك، قام المؤلفون بتقييم مفهوم التماسك الاجتماعي في أوروبا. ومن خلال العديد من دراسات الحالة، يسلط الكتاب الضوء على الطريقة التي أحدثت بها هذه المبادرات تحولًا في هياكل الإدارة والتقنيات العملية للتعامل مع مستخدمي الخدمات. ومن ثم، فقد ناقش المؤلفون بمهارة الإستراتيجيات التي تستخدمها الجهات (الفاعلة) ذات السلطة المحلية لمعالجة التحديات الاجتماعية التي تواجه المنطقة حاليًا. وكما هو موضح في الكتاب، تظل الثورة الهادئة هي الطريقة المبتكرة الأكثر فاعلية لمعالجة مشكلات السياسة الاجتماعية في أوروبا؛ لأن النهج يستلزم التحول من الأساليب التقليدية إلى الأساليب المبتكرة للاستثمار الاجتماعي .

ملخص وخلفية عن الكتاب:

يقدم الكتاب استكشافًا شاملًا لسياسات الاستثمار الاجتماعي وممارساته المتطورة في جميع أنحاء أوروبا. وحيث إن سوزان بينز Susan Baines باحثة بارعة في السياسة الاجتماعية، وأندريا باسي Andrea Bassi خبير معترف به في الابتكار والسياسات الاجتماعية، فهما يقدمان تحليلًا مقنعًا لممارسات الاستثمار الاجتماعي المبتكرة، ويتعاون مثل هؤلاء الخبراء مع جوديت كسوبا Judit Csoba وفلوريان سيبوس Florian Sipos؛ لتحليل العديد من دراسات الحالة من جميع أنحاء القارة (Baines et al., 2019). إن الإمكانات التحويلية للسياسات المبتكرة والحاجة إلى تحديد الأساليب العملية لإعادة تشكيل مشهد السياسة الاجتماعية في أوروبا ألهمت هؤلاء المحررين والمؤلفين تطوير هذا الكتاب.

لقد أصبح الاستثمار الاجتماعي على مر السنين عاملًا حاسمًا في دول الرفاهية الأوروبية، ولا توجد طرق فعّالة للتصدي للتحديات مثل: الفقر الراسخ، والعزلة الريفية. علاوة على ذلك، شهدت القارة العديد من حالات استبعاد الشباب من أسواق العمل، وعدم الدمج الكافي للمهاجرين واللاجئين في المجتمع (O'Leary et al., 2018) . لذلك؛ كان الكتاب بمثابة استجابة لهذه الاحتياجات. وعلى وجه التحديد، يدرس المؤلفون بشكل شامل دراسات الحالة الواقعية والدروس المستفادة من سياقات أوروبية متنوعة، ومن المؤكد أن الكتاب يوفر أساسًا قيمًا لصانعي السياسات والباحثين والممارسين الذين قد يحتاجون إلى معلومات واقعية حول مجال الاستثمار الاجتماعي المتطور. ومن ثم يعد الكتاب مصدرًا حيويًا لأولئك الذين يبحثون عن حلول فعّالة للتحديات الاجتماعية المعاصرة.

تحليل الكتاب

يقدم الكتاب منظورًا شاملًا ومتوازنًا حول إستراتيجيات الاستثمار الاجتماعي من خلال تسليط الضوء على نقاط القوة والقيود الرئيسة، كما يسهل الكتاب الفهم العميق للخطاب من خلال النظر في كلا الجانبين، وتعزز هذه الطريقة وعيًا أكثر واقعية بالتعقيدات الكامنة في سياسات الاستثمار الاجتماعي؛ على سبيل المثال: يعترف النص بالأهمية المتزايدة للجهات الفاعلة في الاقتصاد الاجتماعي بتقديم برامج الاستثمار الاجتماعي. وفي مثل هذه الحالة، يقدم المؤلفون أمثلة على المنظمات التي تلعب دورًا رائدًا في متابعة المبادرات المبتكرة، وتقدم شبكة مجموعات تكامل السوق التي تضم مشروع اللاجئين والمهاجرين (MAMBA) في ألمانيا مثالًا ممتازًا للجهات الفاعلة المشاركة في مبادرات الاستثمار الاجتماعي. وبالمثل، يعترف المؤلفون بالآثار السلبية للتغيير السياسي على الاستثمار الاجتماعي؛ على سبيل المثال: يكشف النص أن التغيرات المفاجئة في السياسات الحكومية يمكن أن تؤثر سلبًا على استدامة هذه البرامج ونجاحها.

ويؤكد Biygautane et al. (2019) في بحثهم الأخير على قيمة التقييم الشامل للاستثمارات. ووفقًا للبحث، يمكن للشراكة بين القطاعين العام والخاص أن تنجح إذا تبنى أصحاب المصلحة الرؤساء التعاون، والتغيير المؤسسي المنظم، ومشاركة الجهات الفاعلة الرئيسة. لذلك؛ يتفق Baines et al. (2019) و Biygautane et al. (2019) على أهمية الإدارة الإستراتيجية للمشروعات، وإشراك أصحاب المصلحة، وإدارة التغيير المنظم؛ إذ تساعد هذه التقنية على تقليل الاضطرابات وتحسين أداء المشروعات، فالتعاون بين القطاعات يمنح الكِتَاب جدارته الأدبية؛ حيث يسلط المؤلفون الضوء على أهمية التعاون في مختلف القطاعات. ويتجاوز هذا النهج العقبات البيروقراطية التقليدية من خلال تعزيز الشراكات بين الحكومات والمنظمات غير الربحية والقطاع الخاص، ويظهر هذا الموضوع بشكل بارز في العديد من دراسات الحالة، فعلى سبيل المثال: يُظهر مشروع الأسر المضطربة في مانشستر Manchester بشكل ممتاز قيمة التعاون في الاستثمار الاجتماعي. إضافة إلى ذلك، فإن العدد المتزايد من التحديات الاجتماعية يشجع التعاون بين الحكومات والقطاع الخاص، فعلى سبيل المثال: "في عام ٢٠١٤م –تحت ضغط الهجرة المتزايدة– قامت الحكومة الوطنية بتفويض مسؤوليات جديدة للقاصرين غير المصحوبين بذويهم إلى جميع البلديات البالغ عددها (٢٩٠)" (Baines et al., 2019). وتُظهر تقنية التنفيذ دون الوطنية هذه القوة التحويلية للشراكة وفاعليتها في معالجة القضايا المجتمعية المعقدة. ويستهدف البرنامج الأسر التي تعاني من العديد من التحديات؛ مثل: الجريمة، والسلوكيات المعادية للمجتمع، والبطالة (Baines et al., 2019).

بهذا المعنى، نجح المؤلفون في تسليط الضوء على الكيفية التي تتجنب بها المبادرة العوائق البيروقراطية التقليدية من خلال تبني نهج قائم على الشراكة. وتبدو هذه الطريقة عملية؛ لأنها تبسط تقديم الخدمات وتؤكد على التدخل المبكر مع الأطفال وتغيير السلوك، وتؤكد آلية تمويل البرنامج، وإستراتيجية الدفع حسب النتائج (PbR)، وعلى وجه الخصوص، تؤكد على أهمية التكليف على أساس النتائج. وفي مثل هذه المشاركات، يتم تحفيز السلطات المحلية على تقديم بيانات توضح النتائج الناجحة. لذلك؛ يلعب التعاون بين القطاعات أدوارًا رئيسة في إعادة تشكيل السياسات والخدمات الاجتماعية. وتؤكد هذه النتائج أن المؤلفين نجحوا في تحقيق الأهداف المحددة التي سعوا إليها، ويعمل هذا النهج كحل موثوق ومبتكر للتحديات المجتمعية المعاصرة.

ويكشف الكتاب –على عكس الطرق التقليدية للاستثمار الاجتماعي– عن الخدمات الشخصية ذات الصلة التي توفر نهجا شموليا لمعالجة المشكلات الاجتماعية المعقدة، ويوضح المؤلفون أن الخدمات الشخصية مصممة لتكون مرنة وقابلة للتكيف. وفي مثل هذه الحالة، فإنها توفر حلولًا فريدة تلبي احتياجات الأشخاص المتنوعة. وتضمن هذه الإستراتيجية المصممة خصيصًا أن تكون التدخلات أكثر فاعلية وملاءَمة. وبناءً على هذا النهج، يستكشف الكتاب تدخلًا متكاملًا سعى إلى معالجة البطالة بين الشباب في اليونان؛ فعلى سبيل المثال: شهد الشباب –بين عامي ٢٠١٠ و٢٠١٤– في غرب اليونان زيادة كبيرة في البطالة، من ١١,٩٪ إلى ٢٨,٧٪ (Baines et al., 2019). ومن ثم، لجأ أصحاب المصلحة الرؤساء إلى إستراتيجيات؛ مثل: برامج التدريب المهني لتحسين فرص العمل. وقد مكنت هذه الفرصة الأفراد الضعفاء من التكيف مع الاحتياجات والظروف المحددة السائدة في أوروبا. لذلك؛ فإن تصميم الحلول حسب المتطلبات الفردية يعزز فاعلية التدخلات وأهميتها. ومع ذلك –وعلى الرغم من كفاءة هذه الإستراتيجية– فشل المؤلفون في الاعتراف بأن الخدمات الشخصية يمكن أن تعرقل توحيد المعايير في بعض الأحيان. وعلى وجه التحديد، فإن تصميم الخدمات بشكل قريب جدًا من المتطلبات الفردية قد يؤدي إلى عدم الاتساق وعدم القدرة على المقارنة في النتائج. هذه الفجوة تعرقل التقييم الفعال لفاعلية البرامج في مختلف البيئات. وفي مثل هذه الحالة، كان من الممكن أن يوفر برنامج تدريبي وطني من النوع الذي تم تقديمه في غرب اليونان حلًا شاملًا لبطالة الأفراد في أوروبا بأكملها.

وعلى الرغم من هذا التحدي، فإن مطابقة الخدمات الشخصية مع أساليب التنمية المستدامة أمر بالغ الأهمية للمجتمعات ذات الدخل المنخفض. وقد قام المؤلفون بتطوير الكتاب من منظور نظرية قائمة على الأدلة، فهم يقدمون باستمرار –في جميع أجزاء الكتاب– البيانات التجريبية، والأطر النظرية للتحقق من صحة تحليلاتهم وحججهم. ويظهر مثال عملي للنهج المبني على الأدلة في مناقشة برنامج ضمان الشباب في فنلندا. ويهدف التدخل إلى تقليل الاستبعاد الاجتماعي عن طريق خلق فرص التدريب والتوظيف ذات الصلة. بالإضافة إلى ذلك، هناك تدخل رئيس آخر يشمل إعادة تأهيل الشباب والخريجين الجدد الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٢٩ عامًا (Baines et al., 2019) أثناء متابعة هذه الأهداف.

يوضح المؤلفون كيف يتم تصميم وتنفيذ البرنامج من خلال الاستراتيجيات المدعومة بالأبحاث، يوضح هذا الرأي أن الكتاب يأخذ عدسة نظرية، حيث إن المواضيع الرئيسة ترتكز على نظريات الاستثمار الاجتماعي، وكذلك الدعوة إلى مبادئ الاستثمار الاجتماعي الموجهة نحو الطلب في نظريتي: الكينزية (Keynesian) نسبة إلى جون كينز الذي أحدثت أفكاره تغييرًا جذريًا في نظرية وممارسة الاقتصاد الكلي وممارسته، والبيفريدجية (Beveridaean) نسبة إلى وليام بيفريدج الذي أسهم في صوغ سياسات الحكومة البريطانية حول الضمان الاجتماعي وسياساته (Busemeyer et al., 2020). وهو ما يدعم أهمية توظيف النماذج المبنية على الأدلة. لذلك؛ وبصرف النظر عن إضافة المصداقية إلى رؤى الكتاب، فإن الطريقة تضمن وضوح الدروس المستفادة من دراسات الحالة المتجذرة وضوحًا جليًّا في الأدلة التجريبية. هذا التركيز على الدعم التجريبي يزود القراء بمستوى أعلى من الثقة، قد يستفيد هؤلاء الأفراد من الإستراتيجيات والحلول التي تمت مناقشتها في الكتاب لتنفيذ مشروعات مبتكرة اجتماعيًا، وفي مثل هذه الحالة يمكن لواضعي السياسات والباحثين والممارسين الاعتماد

بثقة على الكتاب كمصدر قيم للمعلومات لاتخاذ قرارات سليمة.

إن التمييز بين البلدان ذات الأدوار الإقليمية الواضحة وذات تقاليد الرفاهية الوطنية الوحدوية مفيد. ومع ذلك، يبدو أن المؤلفين يبالغون في تبسيط العلاقة المعقدة بين المؤسسات الوطنية والمحلية في مختلف الدول الأوروبية؛ فعلى سبيل المثال: يسلط الكتاب الضوء على تحول المسؤوليات من المستوى الوطني إلى المستوى المحلي في مناطق مثل: هولندا، وفنلندا، والمملكة المتحدة. وعلى الرغم من أن هذا التحول ملحوظ، فإن التنفيذ الفعلي لسياسات الاستثمار الاجتماعي وتأثيرها يمكن أن يختلفا بشكل كبير في كل بلد؛ فعلى سبيل المثال: يسمح برنامج ضمان الشباب في فنلندا للبلديات بتنظيم الخدمات الاجتماعية وتقديمها. ومع ذلك، فإن مدى ممارسة الحكومات المحلية لهذه الحرية قد يختلف باختلاف البلدان. ولهذا السبب؛ فإن اختيار حكومة مركزية أو إقليمية لبرنامج اجتماعي يمكن أن يكون ذا تأثير كبير على النتيجة. ولوضع تلك الاختلافات في السياقات المناسبة؛ كان ينبغي على المؤلفين إجراء استكشاف أكثر أهمية لهذه الاختلافات؛ فقد توفر المعلومات فهمًا شاملًا وعمليًا لتعقيدات سياسات الاستثمار الاجتماعي في جميع أنحاء أوروبا، وإذا تركت دون توضيح –كما ورد في الكتاب– فإن نجاح هذه البرامج الاجتماعية أو فشلها قد يرسل انطباعا خاطئا عن مدى جدواها العملية.

كذلك فإن التقييم الشامل للابتكار الاجتماعي – كما هو موضح في الكتاب– أمر بالغ الأهمية؛ حيث اقترح المؤلفون أن تكون الابتكارات الاجتماعية أكثر فاعلية عندما تحدث في بيئات مستقرة خالية من التغييرات المستمرة وغير المخطط لها، وعلى وجه التحديد ما يتعلق بالأبعاد ذات الصلة بموارد الابتكار الاجتماعي، وتدفقات السلطة، والروتين، والمعتقدات/القيم. ويوفر هذا الإطار نهجًا منظمًا لفهم الابتكار الاجتماعي، لأنه يسلط الضوء على الترابط بين هذه الأبعاد؛ فعلى سبيل المثال: عند دراسة الابتكار الاجتماعي في قطاع الرعاية الصحية، يمكن أن تؤثر إستراتيجيات تخصيص الموارد والتغييرات في السلطة بشكل كبير على الإجراءات الروتينية المعمول بها. وفي المقابل، قد يؤثر الوضع الناتج على قيم مقدمي الرعاية الصحية، وقيم المرضى. وتسهل هذه النظرة الشاملة فهمًا أعمق لكيفية دفع الابتكارات الاجتماعية للتغيير التحويلي داخل الأنظمة المعقدة. ورغم أن هذا الإطار يوفر نهجا منظما لفهم الابتكار الاجتماعي، فإنه قد يتجاهل عوامل محددة تضمن تحقيق نتائج إيجابية، كما يمكن أن تختلف فاعلية الابتكارات الاجتماعية بشكل كبير اعتمادًا على الهدف المحدد لكل مبادرة.

وعلى الرغم من أن الأبعاد الأربعة تعمل كأدوات تحليلية قيمة، إلا أن جميع المبادرات المبتكرة لا تتطلب تركيزًا متساويًا على جميع الأبعاد، ففي بعض الحالات قد تركز الحداثة الاجتماعية الناجحة فقط على إعادة تشكيل معتقدات المجتمع من دون السعي إلى تغييرات روتينية، مما يوجب تطبيق مفهوم الابتكار الاجتماعي في سياقه بناءً على ديناميكيات فريدة تحتل الإستراتيجية الواقعية لقياس نتائج الاستثمار الاجتماعي مركز الصدارة في المناقشة. حيث يطرح المؤلفون سؤالًا حاسمًا فيما يتعلق بالفترة الزمنية: "في أي فترة زمنية يمكن توقع النتائج؟ وفي أي فترة ينبغي قياسها؟" (Busemeyer at al., 2020, p. 54). فيما يتعلق بهذه المسألة، أشار السكرتير الدائم في مجلس العموم إلى أن معظم البرامج تركز بشكل أساس على المكاسب قصيرة المدى بدلًا من المكاسب طويلة المدى. بالإضافة إلى ذلك، قال القائد: إن مقدمي الخدمات مكلفون بجمع البيانات المتعلقة بنجاح البرامج الرئيسة التي ينفذونها والإبلاغ عنها. ومن المؤكد أن هذه الاكتشافات

تضع شكوكًا كبيرة حول صحة البيانات الواردة في هذا الكتاب، فعادةً ما تكون المنظمات المستقلة هي الكيانات الأكثر ملاءمة لإجراء عمليات التدقيق الاجتماعي على أداء المشاريع. لذلك؛ فإن ما تم الكشف عنه في هذا الكتاب يؤكد أن التقييم النقدي للأطر الزمنية للتقييم وطرق جمع البيانات أمر بالغ الأهمية ضمن مبادرات الاستثمار الاجتماعي. وفي مثل هذه الحالة، فإن التحول نحو تقييم الأثر طويل الأجل يمكن أن يوفر تمثيلًا أكثر دقة لفاعلية البرامج. ومن ثم فإن ابتكار مبادرات الاستثمار الاجتماعي يصبح موضع شك، ويعد برنامج العائلات المضطربة في مانشستر Manchester شهادة ممتازة على هذا الارتباك.

لقد سعى منفذو البرنامج إلى تحقيق الابتكار من خلال الدفع حسب النتائج (PbR)، وإستراتيجية تشغيل الخدمة، والتكوين المحلي للخدمات (Busemeyer et al., 2020) . ومن المؤسف أن ضعف إستراتيجية قياس النتائج يجعل من الصعب تحديد أداء المشروعات. ومن ثم -يفشل الكتاب جزئيًا- في بعض الحالات في تحقيق أهدافه الرئيسة؛ لأن البيانات المستخدمة قد تكون مثيرة للجدل.

وعلى الرغم من ذلك يعد دمج دراسات الحالة المتنوعة من عدة دول أوروبية نقطة قوة ملحوظة تثري محتوى الكتاب بشكل كبير؛ حيث يقدم المؤلفون أمثلة واقعية ذات صلة بعرض التقنيات المبتكرة لتنفيذ البرامج الاجتماعية المبتكرة، وهذا النهج يتيح للقراء اكتساب رؤى قيمة حول الطبيعة المعقدة لسياسات الاستثمار الاجتماعي وتنفيذها. بالإضافة إلى ذلك، تقدم كل دراسةِ حالةٍ منظورًا فريدًا حول التحديات والنجاحات التي تمت مواجهتها في سياقات وطنية مختلفة. وتعكس النتائج التنوع الغني للمشهد الاجتماعي والسياسي في أوروبا؛ فعلى سبيل المثال: تشمل دراسات الحالة الرئيسة التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة في إيطاليا، وبرنامج ضمان الشباب في فنلندا. واستنادًا إلى مثل هذه الحالات، يوضح المؤلفون النهج والإستراتيجيات المتضاربة التي اعتمدتها هذه الدول لمعالجة القضايا الاجتماعية. لذلك – وبصرف النظر عن توسيع فهم الجمهور لمفاهيم الاستثمار الاجتماعي-؛ فإن هذه الطريقة توفر منصة لإجراء مقارنات بين البلدان، وتساعد هذه الفرصة أصحاب المصلحة على تحديد أفضل الممارسات والدروس القابلة للنقل. علاوة على ذلك، -ومن خلال عرض أساليب مبتكرة مختلفة، كما في فنلندا وإنجلترا وألمانيا- يلهم الكتاب التفكير النقدي. وفي مثل هذه الحالة، فإنه يشجع القراء على النظر في إمكانية التكيف مع هذه الإستراتيجيات في سياقاتهم المحلية، وبالتالي فإن تحليل دراسات الحالة المختلفة مفيد؛ لأنه يقدم منظورًا شاملًا ومتكاملًا لسياسات الاستثمار الاجتماعي في أوروبا.